سحر بابل

قصوصة شرقية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان القمر الساهر يسكب ذَوْب فضته على أطلال بابل النائمة فوق عُدْوَة الفرات الشرقية ، حينما خرج الشيخ فوزان من كوخه الجاثم فوق العُدْوة الغربية ، مبيما شطر المرفأ الساكن ، ليركب في الزورق الذى اعتاد أن يحمله فى عرائس الليالى العربية المقمرة إلى عذراء حمورابي[1] الراقدة تحت أضغاث الزمان

وكان الليل البابلى الرائع مفعما بالذكريات ، وكان فى كل حَبَّةٍ من لُجَيْن القمر المنتثر فى صفحة الفرات طيف من أطياف البابليين والأشوريين والأكاديين والكلدان يسبح خلف الزورق ، أو يرقص فوق السُّكَّان ، أو يحملق فى غُرَّة الشيخ فوزان ... هذا الشيخ العجيب الذي افتتن به الشعب ، وانعطفت إليه أفئدة الخلق ، وسُحرت بخوارقه قلوب الناس

لقد كان الشيخ فوزان يلعب بالأفاعى السامة ذوات القرون فما تصيبه ، وما تلحق به أذى ؛ وكان يرسل النظرة الحادة من عينيه الصارمتين فيحرك بها الصخر عن موضعه ، ويلوى بها أعنة الدواب فى سيرها ... وكم من مرة تمتم بكلمات لا يفهمها إلا الشيطان فيقبل الشجر فينثر عليه من رُطَبِه ، ثم يمضى تبارك الله فيكون فى مغارسه

وكان للنسوة من جميع القرى المجاورة يقبلن إلى كوخ الشيخ فيلصقن به حتى يتأذن فيَشفى مرضاهن ويُذهب أوصابهن ؛ وهو فى كل ذلك لا يتجشم شيئاً ، إلا رقية ينفثها فى أذن المريض أو المريضة ، أو تميمة يُنمنم حروفها المرتبكة بماء البصل ثم يحملها فى جيد الغادة أو ظهر الفتى الأمرد فيهرول سليما معافى بإذن الله

وكان معروفاً مع ذلك بالتقى والصلاح ، ولم يكن أحد يعرف غرامه بالخمر ، ولا ولوعه بالموسيقى ، ولا سيما الناى . وكان فوزان حصيفاً حازماً ، فكان يستعين على هذين بالكتمان

* * *

ركب إذن فى الزورق ومعه ناييه وزجاجته ، ثم هم ، فهمهمت حوله أطياف الملوك الغُر والفتية الصِّيد من أبناء بابل ... وتبسم القمر الساخر وأخذ يسطع بشدة فوق العمامة المكورة والعباءة البيضاء ... وفى وسط الفرات ، بدا للشيخ أن يتشبه بالملك بختنصر ، فرفع المجاديف وأوقف الزورق ثم جذب الغُدام ووضع الزجاجة فى فمه حتى ارتوى . وما هى إلا لحظة حتى استدار رأسه وبَرَّق القمر فى عينيه ، وامتلأ النهر حوله بالجنيات الجميلات

ومع ذلك كله لم يغب صواب الشيخ ، ولم يضع من حلمه شىء ، بل هم مرة أخرى بالزورق فلم يزل به حتى بلغ شاطئ بابل فنزل فيه ، ومعه الناى والزجاجة

(١) حمورابى مؤسس مجد بابل وصاحب مجموعة الشرائع التاريخية

وسرى بين الأطلال الشاخصة حتى بلغ آثار البرج الكبير فخلع عباءته ، وفرشها فوق حجر عظيم من حجارة المرمر الملقى هنالك ، ثم جلس يحتسى النُّطَفَ الأخيرة الباقية فى الزجاجة

وتناول نايه ، وطفق ينفخ فيه ... وخُيل له أن المدينة الميتة قد انتفضت تحت الثرى وهبت من سباتها الطويل ، وأرهفت آذانها تتسمع وتتطرّب ، فغلا الشيخ فى النفخ ، ولم يبال أن تضج رفات الموتى البابليين

ثم سكت قليلا ، وتواري القمر الساخر وراء سحابةٍ رقيقة فشاعت فى الوجود رهبة طارئة ، وأمسكت القمراء أنفاسها ، ثم ما هى إلا لحظة حتى رجفت الراجفة تحت بابل فتمايلت أوتادها واهتزت جوانبها وتشققت عن كل جبار عنيد

وظن فوزان أنه يحلم ففرك عينيه وحملق فى الآثار المضطربة أمامه ، لكنه رآها ترقص رأى العين ، فأيقن أنه البلاء من الله ، فتشهد وسبح باسم ربه ، وندم على ما عصى أمر الخالق من معاقرة بنت الحان فى مثل ذاك المكان ، الذى لم يكن يصلح إلا للعظة والادّكار ، والتفكر فى أمر هذه الدنيا الفانية التى تضج أحيانا بصولة الأمراء وجبروت الملوك ، ثم ينفذ الأمراء والملوك إلى أعماق رموسها فهم فى بطونها حديث مروى وذِكرٌ صامتات

ثم انشق بطن بابل فجأة ، فصعد منه جداران عظيمان عُلق بينهما شبحان هائلان ذَوَا أجنحةٍ مثنى وثُلاث ، وقد ربطت أقدامهما بأمراسٍ من نار ، وتدلى الرأسان العظيمان إلى أسفل ، وجعل لهب أزرق ينبعث من بدنيهما ، وشَرَرٌ كبير يتقدح من عيونهما ومنخريهما

وتبسم فوزان مع ذاك ... وحسب أن ما رأي وما سمع إن هو إلا تهاويل مما تصنع الخمر برؤوس المخمورين ... ثم أراد أن ينصرف ، فالتفع بعباءته ، وحمل نايه وزجاجته ... وما كاد يخطو خطوتين حتى سمع أحد الشبحين يقول وهو يبكى : « رباه ! رباه ! تبت إليك ، وندمت على ما فعلت ، وإلا تغفرْ لى أكن من الهالكين ! » . ثم سمع الآخر يقول : « يارب ! وسعت رحمتك كل شئ فكيف تضيق بما حملتنا ؟ اللهم لقد أعذَرَنا الناس فخفف عنا ! »

فخافتَ فوزان بالحديث إلى نفسه : « ما هذا ؟ ماذا أسمع ؟ تالله لأعودن وليكونن لي مع هذين حديث ... أبداً ماسمعت الخمر بى مثل هذا أبداً ! »

وعاد إلى مكانه ، وهدأ من روعه ، ثم حيّا الشبحين بتحية الأسلام فرداها وأحسنا ، وعادا إلى ما كانا فيه من شَجوٍ وشكو

— نَشدتُكما الله يا صاحبيّ أن تقصا علىّ قصتكما !

— عُدْ يا ابن آدم من حيث قدمت ... فما أنت وما نحن فيه !

— لقد سمعت أحدكما يتوب إلى الله ويستغفره ، وسمعت الآخر يستعتبه ، فما ذاك أثابكما الله وخفف عنكما !

ونظر إليه الذى سمعه يستعتب الله فتأفف ثم قال :

— اذهب لحاك الله يامفتون ...

— مفتون ؟... لا والله ما أنا بذاك !

— وما تلك بيمينك يا رجل ؟

— هذه ... ؟... هذه زجاجة !

— ألق بها وانج بنفسك يامسكين !

— وماذا علىّ منها أيدك الله ؟ !

— عليك منها ما تراها الآن فيه يا مخبول !

— لست أفهم !

— أيكما شرب صاحبه : أنت أم الزجاجة ؟ ألق بها وتب إلى الله ، وآل على نفسك ألا تقارفها قط ، واحمد الله على أن رأيتنا فى هذا العذاب بسببها اكسرها يا أتعس خلق الله ؟

— ولكن ...

— يا ربنا آمنا بك ، وندمنا على خطايانا ... آه ؟ واحَرَباه !

— ألا تذكران لى من أنتما أثابكما الله وخفف عنكما !

— إذهب .. إمض بها أيها الخاسر فَسَيُسحتك الله !

— ولكن ... من أنتما ؟

— لن تصدق إذا ذكرنا لك !

— وكيف ؟

— إذن ... نحن مَلَكان !

— من ملائكة الله ؟

— جاهل وغبى ... وهل لغير الله ملائكة يا أُحَيْمَق ؟

— وبم طردكما الله من سمائه ؟

— بهذه التى فى يمينك !

— وَىْ ! والله لاذقتها بعد اليوم أبداً ! ولكنكما ملكان يا صاحبىّ ، فكيف شربتما هذا الاثم ؟ !

— لذلك قصة طويلة فامض عنا هداك الله ، وخلّنا فيما نحن فيه من ذاك البلاء

— لا والله لا أفعل حتى أسمع منكما ، لأروىَ للمسلمين لعلهم يهتدون

— ومن المسلمون هداك الله ؟

— المسلمون ! ألا تعرفان من المسلمون وأنتما مع ذاك تذكران أنكما ملكان من ملائكة الله ؟

— يا أخانا إننا ما نزلنا إلى الأرض إلا فى زمان إدريس عليه السلام ، ونحن فى ذاك العذاب منذ ذاك الأوان !

— ويحكما ! إذن فاعلما أن المسلمين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

— أو قد بعث محمد ؟

— بعث محمد وانتشر الاسلام فى المشرقين والمغربين !

— ومنذ كم بعث محمد رضوان الله عليه ؟

— منذ ثلاثة عشر قرناً

— ياربنا لك الحمد . . إذن لن يطول عذابنا !!

— ولِمَه ؟

— لأننا كنا نعرف ونحن فى السماء أن محمداً لايرسل إلا فى آخر الزمان

— صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

— أفأنت مسلم من أمة محمد يا أخانا ؟

— مسلم وابن مسلم ولله الحمد

— وهذه الزجاجة ؟ ! ألم ينهكم محمد عن الخمر ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! نهانا الله

عن الخمر فى كتابه الكريم !

— وفيم شربك الخمر أيها الفاسق إذن ؟

— عفا الله عنى ياصاحبي ، لقد كنت أقول إنها أهون المحرمات !!

— وى ! لقد وقع المسلمون فيما وقعنا فيه ياهاروت !!

— أجل ! لقد قالوها كما قلناها ياحبيبي ماروت !

* * *

وشده فوزان حينما سمع الملكين يتناديان بهذين الاسمين ، وسرت فى جسمه قشعريرة باردة أبرد من قشعريرة الموت ، ثم لم يملك إلا أن ركع أمامهما وطفق يبكى ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة

— ياهذا أنت مسلم وتركع لغير الله سبحانه ؟

وخجل فوزان فانتصب واقفاً ثم قال :

— أأنتما هاروت وماروت حقاً ياصاحبي ؟

— أجل أنا هاروت وهذا أخى ماروت

— ويلكما !! لقد ذكركما الله فى كتابه إلى محمد !

— ذكرنا الله فى القرآن ؟ وعمرك الله ماذا قال سبحانه ؟

— قال تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم

— صدق الله العظيم يا أخانا المسلم ... صدقت يا ألله ! صدقت ياربنا ! اللهم فرج كربنا واقبل توبتنا واغفر ذنبنا واعف عنا يا أرحم الراحمين !

واستخرط الملكان فى البكاء . فتنظر فوزان حتى فاءا ، ثم سألهما :

— نشدتكما الله إذن إلا ما أخبرتمانى بما وقع لكما ، مما استوجب طردكما من السماء ، وكتب لكما سوء ذاك المآل !

— إعلم ياأخانا أن الملائكة[1] لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، عيروهم بذلك وأنكروا عليهم ، وقالوا لله سبحانه : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لفعلتم مثل مافعلوا . قالوا : سبحانك : ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك . قال الله سبحانه . اختاروا إذن ثلاثة من خياركم . وأسفاه علينا ؟! اللهم لا حول ولا قوة إلا بك يارب !

قال ذلك وتفصد العرق من بدنه كالعسل ، ثم أنّ أنينا مؤلما وقال :

— ولسوء طالعى وطالع أخى ماروت اختارنا

(١) الرواية هنا عن ابن إسحاق بتصرف قليل

الملائكة واختاروا ثالثا لنا أخانا عزرائيل . وكنا ثلاثتنا من أتقى الملائكة وأكثرهم ورعا ، بيد أن عزرائيل كان أحصف منا وأكيس ، فكتب الله له السلامة ، وكتب علينا الشقاء فبؤنا بهذا الخزى الذى ترى !

— لست أفهم ياهاروت فأفصح خفف الله عنك !

— سأذكر لك فلا تعجل ... أوه ، النار تدب فى عروقى فالهم غفراً وتخفيفا !

— خفف الله عنك ياهاروت ؟

— لا كتب الله مثلها لك ياصاح ! .. أقول : ثم إن الله سبحانه ركب فينا الشهوة الملعونة التى ركبها فيكم يابنى آدم ، وأهبطنا إلى الأرض ، وأمرنا أن نحكم بين الناس بالحق ، ونهانا عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا ، وشرب الخمر .. فأما عزرائيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربه ، وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه ، وسجد أربعين سنة ، ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى ... ألا ما أسمده ! ألا ما أسمده !

— وأنتما ياهاروت ، ماذا أصابكما ؟

— كل صغير وكل شر يخطر أو لا يخطر على قلوبكم أيها البشر ! لقد لبثنا شهراً أو نحوه نحكم بين الناس بالعدل ، فاذا أمسينا ، ذكرنا اسم الله الأعظم وصعدنا إلى السماء . ثم افتتنا بعد ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

— وكيف !؟

— لشد ما أخجل أن أذكر لك !

— لا عليك فقل !

— اختصمت إلينا يوماً امرأة مقتان يقال لها ناهيد[1] ، فما كدنا نراها حتى أخذت بقلبينا ... فـ ... فراودناها عن نفسها فأبت وانصرفت ؛ ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلنا مثل ذلك فقالت : لا ! إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا خصمى الذى شكوت إليكما ، وتشربا معى من هذه الخمر . فقلنا لها : لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها . فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من الخمر ، وفى نفسها من الميل إلينا ما فيها ، فراودناها فأبت ، وعرضت علينا ما قالت بالأمس ... فنظرت إلى أخى ماروت ونظر أخى ماروت إلى ، وقلت له وقال لى ، ثم قلنا : إن الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس أمر عظيم كذلك وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربت لا هنيئاً ، وشرب أخى ... وشاعت فينا حُمَيّاها فطمس الله بصائرنا ، وارتكبنا كل الآثام التى نهينا عنها !

ولما بلغ هاروت من القول هذا الحد أخذته برحاء العذاب فصرخ وصرخ ماروت مثله ، ولبثا فى ألم وتبريح ساعة كان فوزان يصلى من أجلهما أثناءها ، فلما فاءا وصل هاروت حديثه فقال :

— أرأيت يا أخانا ما صنعت الخمر بنا ؟ لقد قلنا مثلك إنها أهون الشرور فحسوناها فأوقعتنا فى جميع الشرور ، فاحذرها ، ولتكن لك فينا أسوة

— إي وربى لن أذوقها بعد الليلة قط . ولكن

(١) هى فينوس اليونانية . وناهيد هو اسمها الفارسى . والزهرة اسمها العربى

حدثني عفا الله عنك يا هاروت، كيف آل أمركما إلى ما أرى ؟

— حاولنا أن نصعد إلى السماء بعد إذ أثمنا إثمنا فلم تطاوعنا أجنحتنا ... وحقت علينا لعنة الله بما زنينا وعبدنا صنم ناهيد وقتلنا رجلا منكم رآنا ونحن نصنع أولئك فخشينا أن يشهد علينا فيفضحنا ، كأنما نسينا أن الله كان معنا وهو بكل شيء محيط !

— ثم ...

— ثم شق علينا ما حل بنا ، وكان إدريس نبي الله على مقربة منا فتوجهنا إليه ، وقلنا له : يا إدريس : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله ... وشفع لنا إدريس ، وجاءه الوحي يُخيّرنا بين عذاب الدنيا نحتمله ونصبر عليه ، وبين عذاب الآخرة يكون سرمداً ... فآثرنا عذاب الدنيا لأنه ينتهي ، ولأنه أخف وأهون

— أوَهذا الذي تعذبانه أخف من عذاب الآخرة وأهون ؟

— وماذا رأيت من عذابنا ؟ أواه لو رأيتنا نعذب بسياط زبانية كزبانية جهنم ، أو لو رأيتنا نرجم بحجارة مُسوّمة وشواظ من نحاس !

— وناهيد يا هاروت ! ماذا كان من أمرها بعد ذاك ؟

— وا أسفاه ! لقد علمناها الاسم الأعظم فصعدت به إلى السماء فمسخها الله كوكباً كلما غرب انشق بطن بابل علينا كما ترى !

— خفف الله عنكما يا صاحبيّ وعفا عنكما ... ولكنكما كنتما تعلمان الناس السحر ، فما ذاك أثابكما الله ؟

— كنا نفعل ، وكنا نحذر الناس مما نعلمهم ونقول لهم : (إنما نحن فتنة) ، بيد أنهم ما كانوا يسمعون ، وهل سمع الناس إلى ما أتاهم على رسل الله ؟

— كلا والله إلا الأقلون ! ولكن يا صاحبيّ ، نشدتكما الله إلا ما علمتماني مما علمكما الله ؟!

— آه يا هالك ! وأنت مع ذاك تحفظ كتاب الله وقد رأيت ما نحن فيه ؟ !

— علماني نشدتكما الله !

— كلا ! بل أنت تنشدنا الشيطان ! إذن فاجلس نعلمك ما يقصم الله به ظهرك في الدنيا والآخرة ...

* * *

وما كاد يفعل حتى زلزلت بابل زلزالها ومادت أحجارها ، وأطبقت الأرض على هاروت وماروت . وفرك الشيخ فوزان عينيه وهو ينظر إلى القمر ، ثم قبض على الزجاجة وخبط بها رأس تمثال فتهشمت وأخذ نايه فحطمه ، وعاد إلى زورقه ، وتوضأ من الفرات وصلى لله ، وأقسم ليكونن أزكى خلق الله ، وأن يهجر الخمر والسحر ... وقد فعل

دريني خشبة

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :

شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً